الأستاذ طه عبد الباقى سرور

الحلاج وأدب السلوك الصوفى

كان الحلاج فوق رسالته الإصلاحية والربانية ، مربيا وأستاذا صوفيا ، فى القمة السامقة ، سلوكا ومعرفة .

ولقد التف حول الحلاج فى حياته أكبر مجموعة صوفية فى تاريخ القرن الثالث الهجرى ، عصر التصوف الذهبى حتى ليقول العلامة ابن كثير

— ١ — « إنه كان يلازمه فى سفره الشاق الطويل ، أكثر من أربعمائة من صفوة المريدين السالكين » .

وفى كل بقعة فى الشرق الإسلامى من بغداد إلى أعالى الهند ، تكونت مجموعات حلاجية ، ثم تحولت هذه المجموعات إلى جامعة صوفية ، دانت للحلاج بالزعامة والولاية ، واتخذت منهجه معراجا وصراطا .

وقلب التصوف الإيمانى ، وروحه المثالى ، ورسالته الخالدة ، تتجلى مبينة مشرقة فى مدرسة الشيخ والمريد

تلك المدرسة المثالية ، التى أنجبت المربين العالمين ، الذين ابتدعوا سبلا فى التربية ، وأسلوبا فى السلوك ، تخشع حياله وتلقى باليدين وهى صاغرة ، كل مدرسة مهما سمت أدبا ، وكل جامعة مهما عظمت منهجا .

لقد امتدت تلك الأيدى المتوضئة المؤمنة الملهمة ، إلى القلب الإنسانى ، فدرسته وتعمقت خوافيه وجالت خلاله ، وكشفت أسراره ، وأحاطت بنوازعه وخواطره ، فمسحت بنور القرآن فجوره ، وأشعلت بأدب الرسول تقواه ، ثم عرجت بملكاته صعودا حتى أشهدته تسبيحات الملأ الأعلى ، وإشراقات الأفق الأسنى ، فسجد عند ربه يقتات برضوانه ، وينهل من فيضه وينعم بالهامه .

(١) البداية والنهاية .

ثم مشوا بنور ربهم إلى الروح الإنسانى ، فأطعموها نور الذكر ، وسقوها رحيق الحب ، وأشعلوها بالوجد وبسطوها بالأنس، وصاحبوها فى مقاماتها وأحوالها، من النفس الأمارة إلى النفس اللوامة ، ومن المطمئنة إلى الراضية ، ولكل مقام منهجا، ولكل حال علما وذوقا، فاسكنوها نعيما مقيما، وجنة عالية، فى الأولى قبل الآخرة

لقد أحالوا مثاليات القرآن ، وأدب النبوة ، إلى منهج سلوكى تربوى أخرج للناس نماذج بشرية مضيئة لم تعرف الإنسانية بعد الرسل والأنبياء من هو أهدى منهم خلقا ، او أزكى نفسا أو أتقى قلبا

وقد أوجدت هذه التربية ، روحا صوفيا له طابعه وخصائصه ، وهذا الروح هو سر التصوف وأفقه ومنهجه

فقد أخذوا دينهم بقوة ، وتميزوا بعزمات صاعدة ، فهم أرباب العزائم لا الرخص ، وهم الذين أيقظوا قلوبهم فلم تنم عن ربهم وهدفهم . .

وهم الذين عاشوا كل حرف من القرآن ، وكل خلق من الرسول ، فكلامهم حياتهم ، وعقيدتهم وجودهم

قال صوفى لحدث : « أخرجوا زكاة الحديث ، قال: وما زكاة الحديث؟ قال : اعملوا بخمس أحاديث من كل مائة حديث تحفظونها »

والحلاج لم يستكمل تربيته الصوفية على أيدى المشايخ الكبار ، لقد انفصم مابينه وبينهم مبكراً ، فحلق منفردا فى القمم العالية ، واصطلى وحده التجربة الصوفية كاملة ، وألزم نفسه ألوانا من المجاهدة والرياضة ، تعمد فيها القسوة والصرامة ، ومن هنا جاءت تلك البروق الشاطحة ، وتلك الحرارة الدافقة ، التى امتزجت بتعبيرات الحلاج ، وطبعت مواجيده وألحانه بل من هنا جاءت تلك الصلة الكبرى بين الحلاج وربه تلك الصلة العالية الصوت فى حياته ، الصلة التى تجعلنا ونحن نقرأ الحلاج ، نحس برجل يعيش أنفاسه مع مولاه فهو أنيسه وجليسه وحبيبه ومربيه

يقول المستشرق ماسنيون فى مقدمته لكتاب الطواسين .

« وليس هناك من متصوف فى التاريخ أكثر عشرة مع الله من الحلاج الذى يتصل فى حديثه معه . أنا ، وأنت ، ونحن ، وليس هناك من شعر صوفى اشد حرارة وأكثر بعدا عن المادة من شعر الحلاج »

يقول الحلاج معبرا عن منهجه فى السلوك : إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافا للعبد السالك ، وهو بعد فى السلوك غير واصل » .

ويقول : « من صدق مع الله فى أحواله ، فهم عنه كل شىء ، وفهم عن كل شىء . »

ويقول مصورا للصوفى : « الصوفى

يكون مع الله تعالى بحكم ما أوجب ، ولا يكون على سره أثر من الأكوان ويكون وحدانى الذات ، لم يشهده الحق غيره ، فهو أعمى عن الكون .

ويكون له مع الحق نسب يحمل به الواردات ، ولا يذكر برؤية الكون غير الحق »

ذلك هو المنهج الحلاجى أو ذلك هو الحلاج الصوفى : إنه مع الله بحكم ما أوجب ، مع إرادة الله بحكم ما قضت وليس بقلبه أثر من الأكوان ، وهو وحدانى الذات لا يبصر الكون ، بل إن الكون لا يرى فيه غير الحق ، غير الله ، ثم إن له مع الحق لصلة من من الحب والوجد والفناء تعينه على تحمل الواردات وتذوق الإلهامات والقيام بالواجبات

ونستطيع أن نتذوق منهج الحلاج فى آداب السلوك الصوفى ، تلك الآداب التى ألزم مريديه بها ، من ذلك الدستور الذى وضعه لهم ولقد حفظ لنا أبو عبد الله السلمى ، المؤرخ الصوفى الكبير ، زبدة طيبة من ذلك الدستور

فالسلمى يعرض لنا أدب المريد ، ثم يقيم الشاهد والدليل من كلمات الحلاج ومذهبه

والعلامة الكلاباذى ، فى التعرف لمذهب أهل التصوف ، قد حفظ لنا جملا من هذا التراث ، أدرجها تحت قوله : « قال بعض الكبراء ، لقد كانت محنة الحلاج الهائلة ترهب الكتاب وترهب رجال التاريخ فتصرفهم عن أسمه ، وعن تراثه

يقول أبو عبد الله السلمى : « من آدابهم ترك التدبير والرجوع إلى حال التسليم ، قال أبو الحسين بن منصور ، من سلم إلى الله أمره ، صنع به ، وصنع له ، ومن وجد الله لم يجد معه غيره ، ومن طلب رضاه ، حباه الله بالمكنون من سره ، وهو قوله : « ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما »

ومن آدابهم ، دوام التوبة مما عملوا ، ومما لم يعملوا مما جرى عليهم من الغفلات ، كذلك حكى عن الحسين ابن منصور أنه قال :

التوبة ممن لا تعلم ، تبعثك على التوبة مما تعلم ، والشكر على ما لا تعلم ، يبعثك على الشكر على ما تعلم لأنه حرام على العبد الحركة والسكون ، إلا بأمر يؤديه إلى أمر الله »

ومن آدابهم ، الحضور وقت الذكر ، ومجانبة الذكر على الغفلة ، لذلك قال أبن منصور ، : من ذكر الله وهو يشاهد غيره ، لا يزداد منه إلا بعدا ، ويقسو قلبه ، ويكون مستدرجا لا يهتدى »

ومن آدابهم ، ترك التدبير ، والسعى فى طلب الرزق والسكون فى كل الأصول إلى مسوق القضاء وضمان الحق ، كما قال الحسين بن منصور : من أراد أن يتذوق شيئا من هذه الأحوال فلينزل نفسه إحدى منازل ثلاث إما أن يكون كما كان فى بطن أمه ، مدبرا غير مدبر ، مرزوقا من حيث لا يعلم ، أو كما يكون فى قبره ، أو كما يكون فى يوم القيامة .

وقال أيضا ، المتوكل رزقه من حيث لا يعلم بغير حساب ولا يكون عليه فيه سؤال .

ومن آدابهم ، ترك لفظ « أنا » « ونحن » « ولى » وما أشبه ، كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه استأذن عليه رجل فقال : من ذا ؟ فقال . أنا ، أنا ، فكره ذلك رسول الله

وحكى عن الحسين بن منصور أنه قال : إذا قال العبد « أنا » قال الله تعالى بل أنا ؟ وإذا قال العبد ، لا بل أنت يا مولاى : قال المولى : بل أنت يا عبدى فيكون مراده مراد الله فيه :

ومن آدابهم ، العمل فى الوقوف على ما يرد عليهم من الأحوال ، حكى عن الحسين بن منصور أنه قال .

حفظك أنفاسك وأوقاتك وساعاتك وماهو بك ، وما أنت فيه ، فمن عرف من أين جاء ، عرف إلى أين يذهب ، ومن علم ما يراد منه ، علم ماله ، ومن علم ما عليه علم ما هو فيه .

ومن لم يعلم من ، أين أتى وأين هو وكيف هو ، ولمن هو فذاك ، ممن لا يعلم ولا يعلم إنه لا يعلم ، ويظن أنه يعلم .

ومن آدابهم فى معرفة الدواعى ، قال الحسين ابن منصور : داعى الايمان يدعو إلى الرشد ، وداعى الاسلام يدعو إلى الاطلاق ، وداعى الإحسان يدعو إلى المشاهدة ، وداعى الفهم يدعو إلى الزيادة ؛ وداعى العقل يدعو إلى المذاق ، وداعى العلم يدعو إلى السماع وداعى المعرفة يدعو إلى الروح والراحة وداعى التوكل يدعو إلى الثقة ، وداعى الخوف يدعو إلى الارتفاع وداعى الرجاء يدعو إلى الطمأنينة وداعى المحبة يدعو إلى الشوق وداعى الشوق يدعو إلى الوله وداعى الوله يدعو إلى الله وخاب من لم يكن له داعيه من من هذه الدواعى أولئك من الذين اهملوا فى مفاوز التحير ومن لا يبالى الله بهم

البحث مستمر

طه عبد الباقى سرور